

باب العلم قبل القول والعمل

باب العلم قبل القول والعمل وقول الله تعالى { قَاعَلِمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } فبدأ بالعلم وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وقال جل ذكره: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } وقال: { وَمَا يَعْظَمُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } وقال: { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } وقال: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- { من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين } وإنما العلم بالعلم . وقال أبو ذر لو وضعت الصمصامة على هذه وأشار إلى فقهه - فقال: ثم طنت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي -صلى الله عليه وسلم- قيل أن تجيزوا علي لأفنديها ، وقال ابن عباس كونوا ربانيين حكما فقهاء . ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره . هكذا أورد البخاري هذه الآثار وهذه الآيات ، والأدلة كثيرة؛ منها ما هو على شرطه ومنها ما ليس على شرطه، فيقول: "باب العلم قبل القول والعمل" يعني العلم يبدأ به قبل العمل لماذا؟ لأن العمل بلا علم جهل، الذي يعمل بلا علم يتخطى في الجهالة، فلا بد أنك تتعلم ثم بعد ذلك تعمل. ذكر ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب في ثلاثة الأصول يقول: إنه يجب علينا أربع مسائل، تعلم أربع مسائل: الأولى: العلم وهو معرفة الله .. وأهمه معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة. الثانية: العمل به. الثالثة: الدعوة إليه. الرابعة: الصبر على الأذى فيه. ذكر من الأدلة هذا الباب. قال البخاري -رحمه الله- باب العلم قبل القول والعمل والدليل قوله تعالى: { قَاعَلِمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } وَأَشْغَفُ لِدَيْكُ } فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، الله -تعالى- أمر نبيه والأمر لجميع الأفراد { قَاعَلِمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } يعني اعلم ذلك وتحققه. ذكر بعض أبناء أئمة الدعوة أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم معنى لا إله إلا الله حتى نزلت عليه هذه الآية مع أن الآية مدنية، وهذا كذب ما قال ذلك إنما استدل بالآية على فضل العلم، وأنه يقدم على العمل وأن الخطاب وإن كان للنبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه لكل فرد من أفراد الأمة. فالعلم يقدم ثم بعد ذلك يتبعه العمل ويكون العمل نتيجة مفيدة، نتيجة للعلم وثمرة له يقول بعض العلماء: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل، يعني العلم الصحيح يأمر صاحبه بأن يعمل به فإن عمل به بقي العلم وإن لم يعمل به ذهب العلم، وجعلوه ثمرة لكل شيء ثمرة العلم والعمل، ويقول بعضهم: العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر، وجاء في بعض الأحاديث: { أن العلماء الذين لا يعملون بعلمهم يعذبون قبل عبدة الأوثان، فيقولون: كيف نعذب قبل عبدة الأوثان؟ فيقال: ليس من يعلم كمن لا يعلم } . والآدلة على العلم كثيرة؛ منها هذه الآيات وغيرها، الله تعالى مدح العلم ومدح أهله من ذلك قوله تعالى: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } "إنما" للحصر أي لا يخشاه حق خشية إلا العلماء به الذين يعلمون عظمتهم ويعلمون جلاله، ويعلمون كبرياءه ويعلمون أحقيته وهؤلاء هم أهل خشية الذين يخشون الله -تعالى- حق خشيته ويخافونه حق خوفه، هذا دليل على فضل العلم وكذلك قوله تعالى: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } الجواب ماذا؟ الجواب: لا يستويان، لا يستوي عالم وجاهل وبذلك إذا فسر قول الله تعالى: { وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالتَّبَصِيرُ } الأعمى ها هنا هو الجاهل والبصير العالم لا يستويان. وذلك لأن العلم نور تذكرون قول الشافعي: شكوت إلى وكيع سوء حظي فأرشدني إلى ترك المعاصي وقال اعلم بأن العلم نور ونور الله لا يؤتا عاصي فجعل العلم نورا وذلك لأنه ينور لخاصه؛ فلذلك لا يستوي العالم والجاهل، كذلك ذكر الله -تعالى- العلماء مع الملائكة للشهادة به على وحدانية الله في قوله تعالى: { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالتَّمْلِكُ وَأُولُو الْعِلْمِ } لم يستشهد إلا بأهل العلم دل ذلك على أنهم يحملهم علمهم بالله -تعالى- وأسمائه على أن يشهدوا له بوجدانته هذا دليل على فضل العلماء، والمراد بهم العالمون بالله، العالمون بوجدانيته والعالمون بأسمائه وصفاته والمعترفون بها، والعالمون بأمره ونهيه ووعده ووعيدته، والعالمون بأحكامه هؤلاء هم الذين ذكر الله أنه يرفعهم: { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } يرفعهم درجات في دنياهم وفي آخراهم؛ في دنياهم يكون لهم شرف وفضل على غيرهم بحيث يجترمون، وفي الآخرة يرفعهم الله في درجات الجنة. وكذلك اعترف الملائكة بفضل العلم فضل آدم { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا } بفضل الله تعالى آدم لما علمه تلك الأسماء، أسماء الحيوانات والأدوات وما أشبهها فدل على فضل العلم. وكذلك من فضله ما جاء في هذا الحديث ولكنه لم يصح على شرط البخاري فجعله في الترجمة، حديث صحيح مروى في السنن وفي المسند، عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: { من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع وإن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر } . هذا الحديث شرحه العلماء أفرده ابن رجب بشرح في رسالة مطبوعة، شرح هذا الحديث مما يدل على أنه صحيح وأطال في شرحه، كذلك الذين شرحوا البخاري لما أنه استشهد ببعض جملة أطالوا أيضا في شرحه مما يدل على أهميته، فالمراد بالطريق "من سلك طريقا" المسلك والجادة والسبيل سواء كان بعيدا أو قريبا، ولهذا كان طلبة العلم يقطعون المسافات للتعليم يقطعون المسافات البعيدة والقريبة لأجل التعلم، ويغيب أحدهم عن أهله سنة أو سنوات لا يأتهم خبره يتعلم حرصا على أن يسلك الله به طريقا إلى الجنة، وكذلك أيضا يعدون هذا العلم الذي هو علم الوحيين وعلم الشريعة يعدونه أشرف العلوم وأنه ميراث الأنبياء. الأنبياء لم يهتموا بالدنيا لم يورثوا ديناراً ولا درهما ولم يهتموا بكسب الدنيا إنما ورثوا العلم، إنما خلفوا العلم الذي بلغوه فد يقول القائل: أليس لهم تركت ولهم أموال؟ نقول: نعم، ولكن لا تورث عنهم، جاء في الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: { لا نورث ما تركنا صدقة } لا نورث أي لا يكون لنا تركه تقسم وقال: { لا يقتسم ورثتي بعدي درهما ولا متاعا } ومع ذلك فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يخلف ديناراً ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا سلاحه ومتاعه وأرضا جعلها صدقة. خالف في ذلك الرافضة الذين يطعنون على أبي بكر لما لم يعط فاطمة من ميراث أبيها، وكان أبو بكر -رضي الله عنه- قد صحب النبي -صلى الله عليه وسلم- وعرف كيف يتصرف في هذه الواردات: ما يرد عليه من الصدقات، وما يرد عليه من الزكوات، وما يرد عليه من الجزية، وكذلك الأرض التي كانت فتحت بدون قتال كبلاد بني النضير وفدك ونحوها، فيقولون: إن أبي بكر فاطمة؛ ولأجل ذلك يكفرونه وبلغونيه، ومما يستدلون به يقولون: إن زكريا قال: { قَهَبَ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا تَرْتِي وَيَرْتِي مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } فطلب ولدا يرتته وإن سليمان ورت أباه قال تعالى: { وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ } وما علموا أن الميراث ها هنا ميراث النبوة، وإن داود له أولاد كثير غير سليمان . وإنما سليمان هو الذي ورت النبوة، وكذلك زكريا ما طلب الولد لأجل يرته المال وإنما يرث العلم { يَرْتِي } يعني يأخذ ما عندي من العلم { وَيَرْتِي مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } يعني من العلوم التي كانت باقية بعد يعقوب وبعد أولاد يعقوب هذا دليل على أن الأنبياء لا تهتمهم الدنيا ولا يهتمون بتورث أولادهم منها وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر. من الأدلة أيضا على فضل العلم الحديث الذي أشار إليه قوله -صلى الله عليه وسلم- { من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين } لا شك أن هذا أيضا حديث يدل على فضل التفقه والتعلم والحرص على تعلم العلم وتعليمه. كذلك أيضا ما ذكر عن ابن عباس في تفسير الرباني في قوله تعالى: { مَا كَانَ لِيَبْسُرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } يعني أنه يحصر على أن ينشئهم على العلم النافع فيعلمهم مبادئ العلوم شيئا الذي يربي بصغار العلم قبل كباره، يعني يعلم تلاميذه حتى يربيهم التربية هي التنشئة، يعني أنه يحصر على أن ينشئهم على العلم النافع فيعلمهم مبادئ العلوم شيئا فشيئا، ثم بعد ذلك يتوسع بهم إلى أن يحصلوا على العلم فيقسمي ربانيا. والربانيون: هم العلماء الذين تربوا على العلم وربوا عليه غيرهم كان الصحابة يحرسون على نيل العلم وعلى تعليمه؛ فنقل عن أبي ذر وغيره أنه قال: لو وضعت الصمصامة على هذا وأشار إلى راسه، الصمصامة بعني السيف الحاد شديد الحدة، ثم علمت أني أنفذ كلمة قبل أن تجيزوا علي لنفديتها؛ يعني لو رأيت الموت رأيت أني سوف أقتل ولكني سأتكلم بكلمة من العلم أو بفائدة أو بجملة قبل أن يجهز علي لنقلتها؛ يدل هذا على أي شيء؟ يدل على حرص الصحابة على البيان حرصهم على تعليم العلم وعلى نشره وبيانه مهما كان ولو في آخر لحظة من الحياة. وهكذا كانوا يخشون من كتمان العلم، ومع ذلك كانوا يحرسون على أن يبلغوا ما عندهم من العلم خوفا من معرفة الكتمان. وذلك لأن الله -تعالى- توعد من يكتم العلم وعيدا شديدا أقرءوا قول الله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } الذين يكتمون ما أنزل الله من اليبينات والآيات وإلهدي بعد أن أنزله للناس فيكتمونه ويخفونه ولا يعلمون الناس وهم يعرفون أنهم بحاجة إليه، وقال الله -تعالى- في نفس السورة اليبقرة: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَيَسْتُرُونَ بِهِ تَمَتًّا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ } توعدهم بهذا الوعيد، والآية وإن كان يراد بها اليهود ولكنها عامة. الآيات التي نزلت في اليهود يراد بها تحذير الأمة أن يفعلوا كفعالهم؛ لأنهم كانوا صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- وكنتموا كثيرا من كتبهم التي تخالف ما كانوا يعملونه والتي تخالف عن حجة عليهم لماذا كنتموا؟ لأنها تحرمهم شيئا من المصالح الدنيوية تحرمهم مناصب رفيعة تحرمهم دخلا يأتي إليهم من جهتهم ومن عوامهم؛ فيقال: إن -مثلا- بعض الناس يعرف الأدلة ويعرف الأحكام ويعرف التحريم لهذا الأمر ويعرف الحلال والحرام ومع ذلك فإنه يكتم، ويفتي بغير ما يعلمه ويقول: إنني إذا جهرت بالحق لم يقبل العوام مني وإذا خالفت ما يهوونه فإنهم لا يحترمونني ولا يبقى لي منزلة عندهم، فإنا أكنم الدليل أو أكنم الحكم وأفتي بغيره حتى يكون لي شعبية، ويكون لي شهرة ويكون لي منزلة، إذا دخلت عليهم قاموا لي واجلسوني في صدر المجلس ووقفوا علي وتمسحوا بي واحترمونني وعرفوا مكانتي، فإذا قلت لهم -مثلا- لا يجوز التوسل بالأنبياء نفروا مني لأنهم ألفوا ذلك. وإذا قلت لهم: لا يجوز السفر إلى القبور مقتوني لأنهم بألفون ذلك قديما ولأنهم قد نشئوا عليه، وإذا قلت لهم لا تحبوا ليلة المولد نفروا مني وأبعضوني وعصوني، وإذا قلت لهم وجه المرأة عورة مقتوني وهجروني، وإذا قلت لهم: لا يجوز للمرأة السفر بدون محرم خالفوني وعصوني فإنا أفتيهم بخلاف ما أعلم في هذه المسائل وأوافقهم على ما يهوون ولو كان بدعا ولو كنت أعلم أني خاطئ حتى أكتسب عندهم منزلة وحتى يحترمونني، فمثل هذا داخل في هؤلاء الذين يكتمون العلم. إذا كان هذا الصحابي يقول: لو وضعت الصمصامة السيف الحاد على رأسي على أنك سوف تقتلونني، وقدرت على أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل أن تجيزوا علي يعني قبل أن تقتلونني لنفديتها حرصا منهم على البيان وعلى التبليغ الذي أمرهم به النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثبت عنه أنه قال: { بلغوا عني ولو آية } يعني ولو لم تحفظوا إلا آية واحدة. نكتفي بهذا. سن هذا سائل يسأل عن حكم التحلق في المسجد يوم الجمعة لقراءة قرآن، أو سماع أحاديث هل يدخل في ضمن النهي عن التحلق قبل الجمعة؟ لا يدخل، الذي جاء في الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة، أو التحلق للتحدث.